
الفصل الرابع

أشهر القضاة من الصحابة

والتابعين ومن جاءوا بعدهما

obeikandi.com

عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى.

هو الناسك الذى تفجر نسكه حركة، وذكاء وعملا وبناء.

هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها عظمة من سلوكه وكان للمتقين إماماً..!!

هو البسيط فى قوة، القوى فى عدل ورحمة.. هو الحاكم المؤمن الذى أنجبته البشرية ورباه الإسلام.

هو من وصفوه بأنه: "إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع".. فقد ورث من طباع أبيه صرامة لاتعرف الوهن، وحسماً لا يؤرجحه التردد، وتصميماً لا يقبل أنصاف الحلول.

إنه صاحب الطبيعة الفذة التى قلما تتكرر، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير.

ولقد أدرك الرسول ﷺ عظمة تلك الطبيعة البشرية التى رزقها عمر.. وكان يعرف ما تتطوى عليه من أصالة وافتقار.. ولذلك كان يدعو ربه بأن ينصر الإسلام بانضمامه إليه.. ولقد ربح الإسلام بانضمام عمر ﷺ إليه، وقد قال عبد الله بن مسعود:

"مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر"!!

وقد لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة.

وعمر هو ثانى الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر الصديق وهو صاحب المقولة الشهيرة: "ماذا تقول لربك غدا إذا أتيته" ومن هذه المقولة يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته موازينها ومعاييرها. وعلى الرغم من أنه كان أقوى من

كل شهوة وزلة، حتى لأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة ومع هذا يقف بين يدي الله موقف الخشية والحذر والحياء حتى أنه حين يؤم الناس في الصلاة كان يسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير..!

هو ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأبواب الذي لا شيء يورقه في نومته، ويقلقه في صحوه مثل الخشية من أن يسأل ربه غداً في عتاب "لماذا فعلت هذا يا عمر؟"

وحين تولى الخلافة بعد أبي بكر خطب عمر في الناس قائلاً:

"أيها الناس إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاماً بأموركم، ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب"!!

وحين أصبح حاكماً حرم نفسه من الطيبات المشروعة للحاكمين ومن الطيبات المشروعة للمواطن العادى.

وقد فعل ذلك بروح المسئولية التي حببت إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه.. وآخر من يشبع إذا شبعوا، وكان يقول: "كيف يعينى شأن الناس، إذا لم يصبني ما يصيبهم"!!

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكي يولى ابنه "عبد الله" منصباً من مناصب الدولة.. كما رفض أن يرشحه عند موته للخلافة ضمن الستة الذين رشحهم ليختاروا من بينهم وقال:

"حسب آل عمر أن يحاسب منهم واحد، هو عمر".

وقد وضع مبدأ جليلاً فقال:

"من استعمل رجلاً لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك. فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

وعن الاجتهاد والفتوى في عهد عمر كما روى عن شريح أنه قال: قال لى عمر بن الخطاب أن اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله: فإن لم تعلم من أفضية رسول الله ما يساعدك فاقض بما استبان لك من أفضية أئمة المجتهدين، فإن لم تعلم فاجتهد رأيك واستشر أهل الصلاح والعلم.

ولو تتبعنا تاريخ "عمر" لعرفنا كيف كان للشورى في عهده دور مهم وكيف

أدرك أن الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد.. وكيف أن الحرية لديه هي حرية الحق الذى فوق جميع القيود.. وكيف كان يرى أن الناس أحرار فى أن يعلنوا آراءهم ويحدثوا بما فى أنفسهم، فإن أصابوا ربح الجميع وإن كان هناك خطأ تبينوه.

وأعظم مثال على عدل عمر وديمقراطيته حين طلب من العباس أن يترك داره لأنها قريبة من المسجد ليزيد مساحته بها لأنه سمع رسول الله يقول بذلك قبل وفاته وأن يعوضه بأفضل منها ولكن العباس رفض وطلب منه أن يحتكموا أمام حذيفة بن اليمان ووافق عمر ولم يستدع حذيفة بل ذهب إليه هو والعباس الذى قضى بعدم أخذ عمر لداره إلا برضاه وليس قهراً فعدل عمر عن هذا.. وحينها نظر العباس إليه وقال: ألا تزال تريد أن تغلبنى على دارى؟

قال عمر: لا ...

قال العباس: ومع ذلك فقد أعطيتك الدار تزديها فى مسجد رسول الله!

وكان عمر عالماً فقيهاً وقد قال عنه عبد الله بن مسعود:

"كان عمر أعلمنا بكتاب الله. وأفقهنا فى دين الله".

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهب وحده بتسعة أعشار العلم.

وقد قال رسول الله ﷺ مشيداً بفطنته الخارقة: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

ولعلله المضىء وبصيرته الذكية جعله الرسول ﷺ مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه:

" إني لأأدرى ما مقامى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى، أبى بكر وعمر".

وكانت المظاهر العابرة لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين. فحين سمع واحداً يطرى لآخر ويمتدحه قائلاً، إنه رجل صدق فيسأله عمر: هل سافرت معه يوماً..؟

يقول الرجل: لا.

- هل كانت بينكما خصومة يوماً..؟

- لا..

- هل انتمنته يوماً على شيء...؟

- لا

فيقول عمر: "إن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه في المسجد ويخفضه"!!!

إنه عمر هذا الإمام الورع التقى لا يرى في رفع الرأس وخفضه في المسجد كافياً للثقة بمن يفعل هذا، لا تهوينا لشأن العبادة، ولكن إحاطة بأسرار النفس البشرية.. فهو في معرفته بالناس. لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم إنما يُطل على الشخصية كلها، فالعبادة عنده تعنى استواء الشخصية كلها وكانت التقوى عنده قوة وطهراً وسعة حيلة وتفوقاً.

وكان يدرك "عمر" بفطنته أن الفضيلة ليست انسحاباً من الحياة خوفاً من الفتنة، بل هي مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة.. وفي هذا يُسأل: أيهما أذكى وأفضل - رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهي الإثم، أم رجل تشتهي نفسه الإثم ولا يأثم؟

فيجيب عمر: "الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم".

وكان من الممكن أن يفتى في قضيتين متماثلتين بفتاوى مغايرة فإن سئل عن السر في هذا يقول: "ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضى".. أى أن ظروف القضيتين مختلفة وإن تماثلت الوقائع. فهو لا يضع فتاواه في قوالب جامدة، بل كان يتعامل معها بحسب الظروف والأسباب التي تستجد أو تنقص، فمثلاً نراه ينهى حكماً شرعياً كان قائماً في عهد الرسول ﷺ وأبو بكر ؓ ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تتلى في كتاب الله.. وهذا الحكم، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلفة قلوبهم.. وهؤلاء هم من دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف أو بغير اقتناع، ففرض القرآن لهم في بيت المال حظاً يأخذون منه الزكاة تألفاً لهم حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين.. وقلب عمر وجوه الرأي في هذا الشأن ثم قال:

"لقد كان رسول الله يعطيهم، والإسلام يومئذ ضعيف.. أما اليوم فقد أعز الله

دينه وأعلى كلمته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً.

وهكذا نرى أن عمر قد طور في هذه الواقعة التشريع ليتناسب مع الوضع الجديد.

ومثال آخر يوضح أعمال العقل قبل إبداء الرأي:

حينما جيء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحد، ويشهد ثلاثة شهادة تدينه، ولم يبق إلا شهادة الرابع، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً.. ويرسل عمر يستدعي الشاهد.. ولا يكاد يراه مقبلاً حتى تأخذه رهبة.. وحين تترسخ خطاه، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول:

"أرى رجلاً أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين".

ويقدم الشاهد، ويقول: لم أر شيئاً يوجب الحد.. ويتنفس عمر الصعداء.

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظاناً أنه يحمل إليه بشرى. فيقول يا أمير المؤمنين، رأيت فلاناً وفلاناً يتعانقان وراء النخيل، فيمسك عمر بتلابيبه، ويعلوه بمخفقتة، ويقول له بعد أن يوسعه ضرباً:

"هلا سترت عليه، ورجوت له التوبة، فإن رسول الله قال: من ستر على أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة" !!

وإنه ليوصي الناس بهذا الفقه العظيم فيقول:

" هكذا فاصنعوا.. إذا رأيتم أخوا لكم زل زلة فسدوه ووقفوه، وادعو الله أن يتوسع عليه، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان" !!..

ويأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلاً:

- إن ابنتي كانت قد أصابت حداً من حدود الله، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم تابت بعد ذلك توبة حسنة. وهي اليوم تخطب إلى قوم. أفأخبرهم بالذي كان..؟ فيجيبه عمر ذو الورع الذكي:

" أتعمد إلى ماستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، اذهب وأنكحها نكاح العفيفة المسلمة".

وعلى الرغم من أنه كان شديد الوطأة، شديد البأس لكنه شديد الذكاء أيضاً ولا يقضى بعواطفه بل يستعين بهذا الذكاء .. فطبيعي أنه ينفرد من الإثم ولكنه يمحس ظروف اجتراحه تمحيص خبير ويضع القاعدة الذهبية التي تقول:

"لأن أعطل الحدود في الشبهات، خير من أن أقيمها في الشبهات"!!..!

وفي إحدى الليالي وكان عاسا في المدينة.. سمع سيدة تشكو بيتها وحرزها لغياب زوجها وتبين عمر أن زوجها مجند في أحد جيوشه وعند الصباح ذهب لابنته حفصة وسألها:

يا حفصة. كم تصبر المرأة عن زوجها؟

فتجيبه: تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة، وينفذ مع الشهر الرابع صبرها.

فيسن من فوره قانوناً، بالألا يغيب في الجهاد جندي متزوج أكثر من أربعة أشهر.. ويرسل لزوج السيدة يستدعيه من فوره..!!

ويسمع شيخاً كبيراً يبكي في شعر جزل: ولده الوحيد الذي طال غيابه عنه.. ويسأل عمر فيعلم أنه هو الآخر في أحد جيوش المسلمين، فيستدعيه فوراً.. ثم يسن قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إثنين!!.

وهكذا كان يستمد قوانينه من حاجة الناس ومن واقع الحياة.

ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة.. وهذا حق ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائماً ولا بد لكي يؤخذ الاعتراف كدليل، ألا يعزل عن الظروف التي تكتفه وتحيط به، فلربما يجيء نتيجة خوف أو إكراه، وعندئذ يفقد قيمته.. ويقول عمر:

"ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أبعته أو أخفته، أو حبسته أن يقرر على نفسه"!!..!

وقد كان يأمر قواد جيوشه ألا ينزلوا عقاباً بجندي حتى "يطلعوا من الدرب قافلين".

فكان يرى أنه إذا ارتكب جندي خطأ ما ، فلتحقق الواقعة والمسئولية ولكن توقيع الجزاء والعقوبة، يظل مرجأ حتى يغادر الجندي البلاد ويعود لوطنه، ويعلل هذا بالخوف من أن يلحق الجندي بالأعداء ويأوى لصفوفهم لو أنزل به العقاب.

- وإنه ليجاء إليه يوما بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزينة؟
فلايكاد يراهم صفر الوجوه، ضامرى الأجسام حتى يسأل: من سيد هؤلاء..؟
قالوا: حاطب بن أبى بلتعة.

قال: إلىَّ به.

فلما جاء حاطب، سأله: أنت سيد هؤلاء..

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال عمر: لقد كدت أنزل بهم العقاب، لولا ما أعلمه من أنكم تدثبونهم وتجيعونهم
- لقد جاعوا فسرقوا، ولن ينزل العقاب إلا بك!!

ثم سأل صاحب الناقة:

- يا مزني، كم تساوى ناقتك؟

قال: أربعمائة..

قال عمر لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة..!!

ثم قال للغلمان: اذهبوا، ولا تعودوا لمثلها..!!

وهكذا إذا تتبعنا ما كان يسنه عمر من قوانين وما كان يطلقه من فتاوى فلن
يتسع لنا المجال لكي نرصده فى هذا المجال والأمثلة كثيرة وعديدة فهناك كتبه
لقواده وتوجيهاته العسكرية وكتبه لولاته.. وقبل أن نختم الحديث فى هذا الشأن
سنأخذ مثالين يعبران عن مدى ذكائه وبساطته ودعابته.

فحين يبصر امرأة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها
بمخفقتة.. ويطردها ويقول: "إنها لا تبكى لشجونكم وإنما تبكى بدراهمكم..".

ويسأل أحد أولاد هرم بن سنان الذى خلده بشعره، زهير بن أبى سلمى، فيقول
له أنشدنى بعض مدح زهير لأبيك. فينشده فيقول عمر: إنه كان ليحسن
فيكم القول..

فيجيبه الرجل: ونحن والله. إن كنا لنحسن له العطاء..

فيقول عمر: قد ذهب ما أعطيتموه.. وبقي ما أعطاكم...!!

وفي حديث لعمر أخرجه آدم بن أبي إياس في "العلم" عن الأحوص بن حكيم ابن عمير العبسي قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: "تفقهوا في الدين، فإنه لا يعذر أحد باتباع باطل وهو يرى أنه حق، ولا يترك الحق وهو يرى أنه باطل".^(١)

رحم الله عمر فمن حسن حظ البشرية أنه واحد منها، لقد ألهمه الله رشده، ووقاه شر نفسه ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده لا في بلده فقط ولا في عصره وإنما ملء كل زمان ومكان.

* * *

علي بن أبي طالب - رضی الله عنه -

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول، زوجه رسول الله ﷺ فاطمة ابنته بأمر من السماء، وقال لها:

"أما والله زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة" ولما نزلت الآية: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيمَا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَإِبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَنَفْسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. دعا النبي ﷺ علياً وفاطمة وبناهما الحسن والحسين وضمهم إليه وقال: "اللهم هؤلاء أهلي".

وحين آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار اختص علي - كرم الله وجهه - بأخوته.

وقد كان مضرب المثل في البطولة والشجاعة، اختاره النبي ﷺ لينام في فراشه في الليلة التي عقدت قريش فيها أمرها على قتله ﷺ فاختاروا من كل قبيلة رجلاً جلدأ فانكأ، واجتمعوا عند بابة ليلا حتى إذا أصبح الصباح وخرج من باب الدار انقضوا عليه وضربوه بسيوفهم المشحوزة ضربة رجل واحد.

ولنا أن نتخيل كيف أمضى فتى الفتيان هذه الليلة.. فلا بد أن يكون بين جوانحه قلب أسد لا يخشى البأس!

وكم كانت له من بطولات احتلت حيزاً كبيراً في صفحات المجد والشرف ومنها مواقفه الجليلة في يومى خيبر وأحد وغيرهما من المشاهد.

لقد كان - ﷺ وأرضاه - نموذجاً في كل صفات الخير، في الشجاعة وفي الكرم، وفي الوفاء، وفي التواضع، وفي الزهد، وفي العلم، وفي اللين، وفي الرفق.. في كل شيء كان علي سابقاً.. وكيف لا يكون كذلك وقد تربى في بيت النبوة ونما وترعرع في ظل معلم البشرية وهاديها سيد الأنبياء والرسل ﷺ.

وقد وصف الإمام النووي علياً - كرم الله وجهه - بقوله:

"هو أحد العشرة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وقد اختلف العلماء في أول من أسلم من

الأمة، فقيل خديجة، وقيل أبو بكر وقيل على.. قال ابن المسيب: ما كان أحد يقول: سلونى غير على. وقال عبد الله بن عباس: أعطى على تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم فى العشر الباقي" (١).

ووصفه الإمام المناوى فى طبقاته بقوله:

" هو باب مدينة العلوم والمواهب، وليّ المتقين، وإمام العادلين. ختم الله به الخلافة كما ختم بمحمد ﷺ النبوة.. وكلامه أفرد بعدة أسفار كبار، وأما ما نقل عنه من التقلل والتزهّد، وما اشتهر به من الترهّب والتعبّد فكثير.. وقال ﷺ: "والذى فلق الجنة، وبرأ النعمة إنه لعهد النبى الأُمى ﷺ إلىّ ألاّ يحبنى إلا مؤمن، ولا يبغضنى إلا منافق" (رواه مسلم).

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: " كنا نعرف المنافقين ببغضهم علينا.. " (٢).

لقد التفت شخصية البطل والرجل والمسلم فى شخصية الإمام علىّ أصدق لقاء. لم ينفصم البطل عن الرجل، عن المسلم فى حياة "على" على الإطلاق فإذا رأيناه يبارز خصما مثلا؛ فليس البطل المتمكن هو وحده الذى يبارز بل إن رجولة الرجل؛ وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وأدائها..!!

وحين أباح الرسول ﷺ للمسلمين أن يستعملوا رأيهم واجتهادهم الخاص إذا عرضت لهم مسألة لم يجدوا لها جوابا فى القرآن أو الحديث.. وقد أقر "على" على التشريع بالاجتهاد عندما بعثه إلى اليمن، فقد روى أنه ودعه بقوله: "اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه". وأوصاه ألا يقضى بين خصمين حتى يسمع كلام كل منهما، وقال له: "إنك إن اجتهدت فأصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر واحد".

ومن أمثلة اجتهاد "على" ﷺ أنه أتاه باليمن ثلاثة نفر يختصمون فى غلام، فقال كل منهم: هو لى. ولم يكن لأحد منهم دليل قوى، فأقرع "على" بينهم، وجعل

(٢) الكواكب الدرية.

(١) تهذيب الأسماء واللغات.

الولد لمن خرجت له القرعة وألزمه بأن يدفع للرجلين ثلثي الدية ، فبلغ ذلك الرسول ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه^(١).

وقد تعرض "الإمام علي" لمحنة كبرى بدأت بتعرضه لموقعة "الجمل" وما تحمله من معاناته نفسية ومعنوية حين خرج عليه أحب الصحابة لقلبه طلحة والزبير - رضى الله عنهما- والسيدة عائشة - رضى الله عنها- يطالبون بدم عثمان، وقد حاول الخروج إليهم في محاولة لإخماد تلك الفتنة قبل أن يستشري أمرها ولكنهم كانوا قد سبقوه إلى البصرة، وقامت معركة بين الفريقين أشعلها الكارهون للإسلام، وأحكموا مؤامرتهم واستمر القتال سبعة أيام وقتل يومئذ الصحابي الجليلان كما قتل من الفريقين ما يقرب من عشرة آلاف.

وعلى الرغم مما عانى إلا أنه بعد انتهاء المعركة قام بتجهيز أم المؤمنين - السيدة عائشة- بكل ما تحتاج إليه في رحلة العودة إلى المدينة، وشيعها بنفسه وسير معها بعض أولاده ورجاله.

وأخذت المصائب والمحن تلاحقه وخاصة بعد تعرضه لخدعة التحكيم من معاوية بن أبي سفيان على يد عمرو بن العاص ومحاولة خلعه، وأيضا حين عصاه جنوده وشيعته ومحبيه، وإعلان فريق كبير من الجيش عدته حوالى اثني عشر ألفا التمرد ورفع راية العصيان رافضين نتيجة التحكيم وراحوا يرددون القول: لا حكم إلا لله.

وبذا ظهر الخوارج الذين شققت بهم الأمة طويلا ولا تزال، والذين اعتقدوا أنهم وحدهم المسلمون حقاً، وأن جمهور الأمة قد ارتدوا للكفر فاستباحوا دماءهم وأموالهم.

وقد تتبعتهم أمير المؤمنين "علي" وبعد أن فرغ منهم وأراد السير لأهل الشام فإذا برجاله يستمهلونه بحجة الاستعداد للقتال وراحوا يتسللون من معسكره خفية، ومن بقى مع الإمام راحوا يتقاعسون عن القتال ويدافعون بطريقة القهقري وهو يعظهم بكل موعظة، ويستحثهم بأبلغ القول، ولكن لا حياة لمن تنادى!!

(١) إعلام المومنين لابن القيم ص ٧٣.

وفى تلك الأثناء تمكن معاوية رضي الله عنه من الاستيلاء على مصر، ومن بعدها الحجاز واليمن.

ولعل خطب "علي" أبلغ دليل على ما كان يشعر به حينئذ.. ومن خطب "علي" رضي الله عنه التي تقطر مرارة وأسى بسبب خذلان شيعته وعصيانهم له في أخريات أيامه والتي أمر أحد أصحابه بقراءتها على أهل الكوفة في المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة وقال فيها:

".. أما والله لو ددت أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم.. ولو ددت أني لم أركم ولم أعرفكم، فقد والله ملأتم صدري غيظاً، وجرعتموني الأمرين أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان.. حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، الله أبوهم!! هل كان فيهم رجل أشد لها مراساً، وأطول مقاساة مني؟؟.. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا اليوم قد عدوت الستين.. ولكن لا رأي لمن لا يطاع!!"

وهكذا فالدنيا - لأولياء الله وأحبابه- تعب ونصب ، وقد قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :
" لا راحة للمؤمن دون لقاء الله".

وكان صلى الله عليه وسلم قد أخبر "علي" بتفاصيل قتله حتى عرفه من سيقنته وفي أي ساعة، فكان كرم الله وجهه إذا لقي عبد الرحمن بن ملجم يشير إليه قائلاً لأصحابه:

- هذا قاتلي.

فإذا قالوا له:

- ألا تقتله؟

يقول لهم:

- ومن يقتلني إذن؟

وقد تحققت نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له يوماً:

- "يا علي، من أشقى الأولين وأشقى الآخرين؟"

فقال: الله ورسوله أعلم.

قال: "أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين الذى يطعنك يا على". وأشار ﷺ إلى الموضوع الذى سيطعن فيه.

وهكذا وكما رأينا تحققت النبوءة وقتل رحمه الله بسيف عبد الرحمن بن ملجم.. رحم الله الإمام "على" ﷺ فلم يبق أحد من المسلمين إلا بح صوته ترحما عليه، وقد وقف أحد كبار الصحابة وهو الصحابي الجليل "عبد الله بن عمر" يقول والدموع تبلل لحيته:

" ما أجدنى آسى على شىء فاتتى فى حياتى، إلا على أنى لم أقاتل مع "على" الفئة الباغية".

وأحس المسلمون حينئذ بفداحة ما فعلوه وخاصة فى العراق الذين أحسوا أنهم ضالعون فى الإثم وشركاء فى الوزر، يوم تخلوا عنه وتركوه وحده فى الفضاء الموحش!! وراحوا يبكون، ويولولون..

رحم الله الإمام على رابع الخلفاء الراشدين وخاتمهم كما كان رسولنا الكريم ﷺ خاتم الأنبياء.. رحم الله إمامنا فقد كان نعم الإمام الفقيه العادل الشجاع العالم الرحيم.. والذى فى إسلامه كان نموذجا عظيما مكتمل الشكل والجوهر، فكان إسلامه عبادة ونسكا.. جهادا وبذلا.. ترفعا وزهدا.. فطنة وورعا.. سيادة وتواضعا.. قوة ورحمة.. عدالة وفضلا.. استقامة وعلما.. بساطة وتمكنا.. ولاء وفهما.

* * *

معاذ بن جبل - رضى الله عنه -

هو رجل من الأنصار بايع الرسول يوم العقبة الثانية.. وكان لا يتخلف عن رسول الله ﷺ في مشهد ولا في غزاة.

كان أجل خصائصه فقهه.. فأفقد بلغ من الفقه والعلم المدى الذي جعله أهلاً لأن يقول عنه الرسول ﷺ: "أعلم أمتي بالحلال والحرام، معاذ بن جبل"، وكان معاذ شبيه عمر ابن الخطاب في استتارة عقله، وشجاعة ذكائه، وقد سأله الرسول ﷺ حين وجهه لليمن:

"كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟

فأجابته قائلاً: "بكتاب الله"...

قال الرسول ﷺ: "فإن لم تجد في كتاب الله!؟.."

قال معاذ: "أقضى بسنة رسوله"..

قال الرسول ﷺ: "فإن لم تجد في سنة رسوله!؟.."

قال معاذ: "أجتهد رأبي ولا ألوا".

فتهلل وجه رسول الله وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله".

ومن هذا الموقف يتضح لنا أن الرسول ﷺ أباح للمسلمين أن يجتهدوا أو يستعملوا رأيهم إذا عرضت لهم مسألة ولم يجدوا لها جواباً في الكتاب أو السنة.

ولعل قدرة معاذ ﷺ على الاجتهاد وشجاعته في استعمال ذكائه وعقله هما اللتان أصقلتا ثراءه الفقهي الذي فاق به أقرانه وإخوانه، وكان دائماً يجلس والناس حوله وكان صموت لا يتحدث إلا على شوق الجالسين إلى حديثه.. وإذا اختلفت الجالسون في أمر، أعادوه إليه ليفصل فيه.. فإذا تكلم، كان لما وصفه أحد معاصريه:

"كأنما يخرج من فمه نوراً ولؤلؤاً".

وقد قال أبو مسلم الخولاني:

"دخلت مسجد " حمص " فإذا جماعة من الكهول يتوسطهم شاب براق الثنايا صامت لا يتكلم.. فإذا اختلف القوم في شيء توجهوا إليه يسألونه.. فقلت لجلس لي: من هذا..؟ قال: معاذ بن جبل.. فوقع في نفسي حبه".

وكان معاذ ؓ سمح اليد والنفس والخلق فلا يسأل عن شيء إلا أعطاه جزلان مغتبطا.. ولقد ذهب جوده وسخاؤه بكل ماله.

وحين واثت المنية الرسول ﷺ كان معاذ باليمن كما وجهه النبي ﷺ ليعلم المسلمين ويفقههم في الدين.

وفي خلافة أبي بكر عاد من اليمن، وحدث بينه وبين عمر بن الخطاب موقف يدل على عدل عمر وطهارة كف معاذ.

فحين علم عمر بأن معاذ قد أثرى من وجوده باليمن اقترح على الخليفة أبي بكر أن يشاطره ثروته وماله..!! ولم ينتظر عمر بل هب مسرعا لدار معاذ وعرض عليه الأمر الذي رفضه.. وتركه عمر وانصرف.

وفي الغداة، كان معاذ يطوى الأرض حديثا شطر عمر.. ولا يكاد يلقاه.. حتى عانقه ودموعه تسبق كلماته وقال له: " رأيت الليلة في منامي أني أخوض حومة ماء، أخشى على نفسي الغرق، حتى جئت فخلصتني يا عمر".

وذهبا معا لأبي بكر الذي رفض عرضهما.. وحينها نظر عمر لمعاذ وقال له: " الآن، حل وطاب".

وبالطبع ما كان أبو بكر ليترك درهما لو علم أن معاذ أخذ به غير حق..

وفي خلافة عمر ؓ استخلفه على الشام بعد وفاة أميرها أبو عبيدة ولم يمض في الإمارة سوى بضعة أشهر حتى لقي ربه وكان لا يجاوز الثلاثة والثلاثين عاما.

وكان عمر ؓ يقول: "لو استخلفت معاذ بن جبل، فسألني ربي: لماذا استخلفته؟ لقلت: سمعت نبيك يقول: "إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل، كان معاذ بين أيديهم".

وهو من قال فيه عمر رضي الله عنه وكان كثير الاستشارة له ويستعين برأيه وفقهه:
"لولا معاذ بن جبل لهلك عمر".

رحم الله معاذًا دائب الدعوة للعلم وإلى ذكر الله وكان دوماً يقول:
"تعلموا ماشئتم أن تتعلموا، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا".

* * *

أبوموسى الأشعري - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر ابن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر بن أود بن زيد بن يشجب أبو موسى الأشعري.

وأمه طيبة بنت وهب وهى امرأة من عك.

كان أبو موسى شخصية مميزة بين الشخصيات الإسلامية، فقد كان طاهر القلب، نقى الروح، عفيف النفس، حاد الذكاء، صادق القول والعمل. تغلف^(١) حياته طيبة طاهرة ووداعة^(٢) ظاهرة. إلا أنه سرعان ما يتحول إلى مجاهد مغوار إذا كان الأمر يتعلق بغزوة أو جهاد فى سبيل الله عز وجل.

قدم أبو موسى من بلاد اليمن إلى مكة المكرمة، حيث أقام فيها وحالف سعيد ابن العاص.

ولما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام، واطلع على حقيقة الدين الجديد، أعلن إسلامه أمام النبى الكريم، وبقي فترة فى مكة المكرمة يفهم أمور الدين ويتفقه فى معانيه ويحفظ الآيات القرآنية الكريمة.

ولما استقى من رحيق الإسلام غادر إلى اليمن بناء على طلب الرسول ﷺ. وهناك جعل من نفسه داعية للإسلام.

واستطاع أن يدخل عدداً كبيراً من الأشعريين فى الدين الحنيف.

ولما أصبح عدد المسلمين من الأشعريين يجاوز الخمسين رأى أبو موسى أن يتجه بهم إلى المدينة المنورة، حيث ينضم الجميع إلى إخوانهم فى الدين ويساهمون فيما يجب عليهم لمواكبة مسيرة الإسلام المباركة بقيادة محمد بن عبد الله ﷺ.

ولما وصل إلى المدينة المنورة على رأس الأشعريين. صادف وصوله وصول

(٢) وداعة : لطف ورقة .

(١) تغلف : تغطى .

من هاجروا إلى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب. فكان سرور النبى بهم جميعاً لا يوصف، وأعطاهم نصيبهم من غنائم خيبر التى كان قد فتحها فى تلك الأثناء.

امتاز أبو موسى بذكاء متوقد وذاكرة قوية. ولذا سهل عليه أن يستوعب أمور الدين بسرعة ملحوظة ويتفقه فى أحكام الآيات، حتى أصبح عالماً من علماء المسلمين.

واستطاع أبو موسى بحكم قربه من الرسول ﷺ أن يتعلم كثيراً وأن يفهم ما يتعلمه. كما نذر نفسه للجهاد فى سبيل الله عز وجل باندفاع وإخلاص وتحمل من العذاب والمشاق الشئ الكثير.

وكان فى فهم أمور الدين وشرح أحكامه يعد من الأوائل الطليعيين حتى قال فيه ابن المدائنى:

- "قضاة الأمة أربعة: عمر وعلى وأبو موسى وزيد بن ثابت".

ولقد استعمله رسول الله ﷺ لفترة من الزمن على زيد وعدن من أراضى اليمن.

واستمر أبو موسى فى ميادين الجهاد إلى جانب الرسول ﷺ، حتى توفاه الله إليه وانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى.

وتابع أبو موسى مسيرة الجهاد فى عهد الخلفاء، أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم-. فسجل بطولات نادرة وحقق فتوحات واسعة بفضل حسن تخطيطه وجرأته وفطنته فاقترن اسمه بكل أمجاد التاريخ الإسلامى وفتوحاته.

وقد عينه عمر بن الخطاب ؓ واليا للبصرة خلفاً للمغيرة بن شعبة، فكان يفقه أهلها ويعلمهم أصول دينهم، كما أنه انصرف لإعداد الجيش وتنظيمه، وقد ساعد هذا الجيش بقيادته فى القضاء على الفرس بقيادة الهرمزان وجيشه وأسرهم ودخولهم لمدينة "تستر".

وفى عصر عثمان بن عفان تولى أبو موسى إمارة الكوفة واستطاع أن يدير شئونها بكل هدوء وأمان، وقد أحبه الناس والتفوا حوله يستمعون إلى علمه وفقهه.

وبعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، بويح الإمام على بيعة صحيحة خليفة على المسلمين.

ولكن معاوية بن أبي سفيان والى الشام أخذ يطالب بتسليم قتلة عثمان والاقتصاص منهم.

وكان هدف معاوية واضحاً وهو رغبته بالوصول إلى الخلافة بعدم اعترافه بخلافة الإمام على.

وتفاقت الأمور بين الرجلين وأتباعهما حتى كانت هناك فتن وثورات وحروب شقت الصف الإسلامي وألحقت به ضرراً فادحاً.

وقد ظل أبو موسى على الحياد بين عمرو بن العاص ومعاوية. فلم يدخل في نزاعهما ولم يشترك في صراعهما، بل آثر المراقبة والترقب بعد أن بذل جهوداً كبيرة لإنهاء الخلاف بدون نتيجة.

وبعد معركة صفين، اتفق المسلمون على التحكيم، بين على ومعاوية، على أن يستجيب الرجلان للقرار أياً كانت نتيجته.

ورشح أنصار الإمام على. أبا موسى الأشعري ليمثله في التحكيم. إلا أن الإمام علياً -كرم الله وجهه- كان يريد أن يكون ممثله عبد الله بن عباس، ولكن جماعته رفضوا وأصروا على أبي موسى وهددوا بالانسحاب من معسكره، فرضخ لرغبتهم^(١).

أما معاوية بن أبي سفيان فقد مثله في التحكيم أحد دهاة العرب المسلمين، عمرو بن العاص.

والواقع أنه كان هناك تناقض كبير بين شخصيتي أبي موسى وعمرو.

وبالرغم من كل الصفات الحميدة في نفس أبي موسى ووداعته وطهارته . إلا أنه أظهر حكمة وذكاء نادرين أثناء تحاوره مع عمرو بن العاص.

والخدعة حصلت من عمرو فقط ، لأنه قدم أبا موسى ليتكلم قبله فقال

(١) رضخ لرغبتهم : أذعن لهم وأطاعهم.

أبو موسى الصدق في حين أن عمرو بن العاص نقض الاتفاق وأعلن قراراً
خلاف القرار المتفق عليه.

ولم يحتمل أبو موسى وقع المفاجأة على نفسه وعلى المسلمين. فوجه لعمرو
ابن العاص كلمات قاسية على مسمع من كل الناس الذين فهموا الوضع
وأدركوا الخدعة.

واستعر^(١) القتال من جديد بين أنصار الرجلين.

ورأى أبو موسى حال المسلمين يسوء في قتالهم وآلاف الضحايا يذهب
دمها هدراً.

فانسحب إلى مكة المكرمة.. إلى البيت الحرام يمضي فيه أيامه الباقية من
عمره، وهو أشد ما يكون حزناً وكآبة.

وتابع سيرته الوضاعة في شرح الدين وتعليم المسلمين وزيادة تفقهم ومن
كلماته المأثورة:

- "اتبعوا القرآن ولا تطمعوا بأن يتبعكم القرآن".

ودنا الأجل وانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى وكانت آخر كلماته:

- "اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام".

رحم الله أبا موسى الأشعري، فقد كان مناضلاً صلباً، مسالماً، وديعاً عظيم-
الثقة بالناس، مخلصاً متحملاً للمسئوليات التي تلقى على عاتقه، وكان نعم الفقيه
والداعية، وكان حافظاً للقرآن ويتلوه بصوت يهز الأعماق وتتشعر له الأبدان
حتى لقد قال عنه الرسول ﷺ: "لقد أوتى أبو موسى مزاميراً من مزامير
آل داود!"

* * *

(١) استعر : نشب بقوة وعنف .

أبو الدرداء - رضى الله عنه -

هو عويمر بن مالك الخزرجي.. المكنى بأبي الدرداء.. والخزرجي نسبة للخزرج وهي قبيلة يمانية الأصل ارتحلت إلى المدينة واستقرت فيها وكانت هي والأوس تكون جمهرة الأنصار.

كيفية دخوله في الإسلام:

بينما كانت جيوش الإسلام تضرب في مناكب الأرض.. هادرة ظافرة.. كان يقيم بالمدينة فيلسوف عجيب.. وحكيم تتفجر الحكمة من جوانبه في كلمات تنهت نضرة وبهاء..

وكان لا يفتأ يقول لمن حوله:

"ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند بارئكم، وأماها في درجاتكم، وخير من أن تغزو عدوكم، فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم، وخير من الدراهم والدنانير؟؟"

وتشرب أعناق الذين ينصتون له.. ويسارعون بسؤاله: "أى شيء هو.. يا أبا الدرداء؟؟"

ويستأنف "أبو الدرداء" حديثه فيقول ووجهه يتألق تحت ضوء الإيمان والحكمة:
"ذكر الله.. ولذكر الله أكبر!!.."

لم يكن هذا الحكيم العجيب يبشر بفلسفة إنعزالية، ولم يكن بكلماته هذه يبشر بالسلبية، ولا بالانسحاب من تبعات الدين الجديد.. تلك التبعات التي يأخذ الجهاد مكان الصدارة منها.

أجل.. ما كان "أبو الدرداء" ذلك الرجل، وهو الذي حمل سيفه مجاهداً مع رسول الله ﷺ منذ أسلم، حتى جاء نصر الله والفتح.

ولقد كان الحكيم في تلك الأيام العظيمة "أبو الدرداء" ﷺ إنساناً يتملكه شوق عارم إلى رؤية الحقيقة واللقاء بها.

وإذ قد آمن بالله ورسوله إيماناً وثيقاً، وقد آمن كذلك بأن هذا الإيمان بما يمليه من واجبات وفهم، هو طريقه الأمل والأوحد إلى الحقيقة.

وهكذا عكف على إيمانه مسلماً إليه نفسه، وعلى حياته يصوغها وفق هذا الإيمان في عزم، ورشد، وعظمة..

أجل.. لقد انتهى جهاد "أبي الدرداء" ضد نفسه، ومع نفسه إلى تلك الذروة العالية.. إلى ذلك التفوق البعيد.. إلى ذلك التفاني الرهباني.. الذي جعل حياته - كل حياته.. لله رب العالمين!!..

لقد التقى الإيمان والحكمة في هذا الرجل الأواب لقاء سعيداً، أى سعيداً!!!..
سئلت أمه عن أفضل ما كان يحب من عمل.. فأجابت:
"التفكير والاعتبار".

أجل.. لقد وعى تماماً قول الله في أكثر من آية: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وكان وهو يحض إخوانه على التأمل والتفكير يقول لهم:
"تفكر ساعة خير من عبادة ليلة"..

لقد استولت العبادة والتأمل ونشدان الحقيقة على كل نفسه.. وكل حياته.. ويوم اقتنع بالإسلام ديناً، وبإيع الرسول ﷺ على هذا الدين الكريم، كان تاجراً ناجحاً من تجار المدينة النابهين، وكان قد قضى شطر حياته في التجارة قبل أن يسلم، بل قبل أن يأتي الرسول والمسلمون إلى المدينة مهاجرين.

بيد أنه لم يمض على إسلامه غير وقت وجيز حتى رفض التجارة وأقبل على العبادة.

لقد كان رجلاً ينشد تخصصاً روحياً وتفوفاً يرنو إلى أقصى درجات الكمال الميسور لبني الإنسان..

لقد أراد العبادة كمعراج يرفعه إلى عالم الخير الأسمى، ويشارف به الحق في جلاله، والحقيقة في مشرقها، ولو أرادها مجرد تكاليف تؤدي، ومحظورات تترك، لاستطاع أن يجمع بينها وبين تجارته وأعماله.

ولقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لم تلههم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله... بل اجتهدوا في إنماء تجارتهم وأموالهم لخدموا بها قضية الإسلام، وكفوا بها حاجات المسلمين.

ولكن منهج هؤلاء الأصحاب، ليس كمنهج أبي الدرداء، كما أن منهجه ليس كمنهجهم، فكل ميسر لما خلق له..

وأبو الدرداء يحس إحساساً صادقاً أنه خلق لما نذر له حياته.. التخصص في أن ينشد الحقيقة بممارسة أقصى حالات التبتل وفق الإيمان الذي هداه إليه ربه، ورسوله، والإسلام.. حتى وصل لحد التصوف.

ولكنه تصوف رجل توفر له من فطنة المؤمن، وقدرة الفيلسوف، وتجربة المحارب، وفقه الصحابي، ما جعل تصوفه حركة حية في بناء الروح، لا مجرد ظلال صالحة لهذا البناء!!

رجل دفع الدنيا بكلتا راحتيه، وزادها بصدوره..

رجل عكف على نفسه حتى صقلها وزكاهها، وحتى صارت مرآة صافية انعكس عليها من الحكمة، والصواب، والخير، ما جعل من أبي الدرداء معلماً عظيماً وحكيماً قوياً.

سعداء، أولئك الذين يقبلون عليه، ويصغون إليه..

وسيتضح مما سيأتى فلسفته تجاه الدنيا وتجاه مباحها وزخرفها..

إنه متأثر حتى أعماق روحه بأيات القرآن الرادعة عن: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢، ٣].

ومتأثر حتى أعماق روحه بقول الرسول: "ما قل وكفى، خير مما كثر وألهى".. ويقول عليه الصلاة والسلام:

"تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه، فرق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع شمله، وجعل غناه في قلبه، وكان الله إليه بكل خير أسرع".

من أجل ذلك، كان أبو الدرداء يرثى لأولئك الذين وقعوا أسرى طموح الثروة ويقول: "اللهم إني أعوذ بك من شتات القلب..

سئل: وما شتات القلب يا أبا الدرداء..؟؟

فأجاب: أن يكون لى فى كل واد مال"!!!...

وهو يدعو الناس إلى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها.. فذلك هو الامتلاك الحقيقى لها.. أما الجرى وراء أطماعها التى لا تؤذن بانتهاء، فذلك شر ألوان العبودية والرق.

عندما فتحت "قبرص" وحملت غنائم الحرب إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكى.. واقتربوا دهشين يسألونه، وتولى توجيه السؤال إليه "جبير بن نفير":

قال له: "يا أبا الدرداء، ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله"؟؟

فأجاب أبو الدرداء فى حكمة بالغة وفهم عميق: "ويحك يا جبير.. ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره.. بينما هى أمة قاهرة، ظاهرة، لها الملك، تركت أمر الله، فصارت إلى ما ترى"!!!

أجل.. وبهذا كان يعلل الانهيار السريع الذى تلحقه جيوش الإسلام بالبلاد المفتوحة.. إفلاس تلك البلاد من روحانية صادقة تعصمها، ودين صحيح يصلها بالله.

ومن هنا أيضاً، كان يخشى على المسلمين أياماً تحل فيها عرى الإيمان، وتضعف روابطهم بالله، وبالحق، وبالصلاح، فتنقل العارية من أيديهم، بنفس السهولة التى انتقلت بها من قبل إليهم..!!

وكما كانت الدنيا بأسرها مجرد عارية فى يقينه، كذلك كانت جسراً إلى حياة أبقى وأروع.

دخل عليه أصحابه يعودونه وهو مريض، فوجدوه نائماً على فراش من جلد.

فقالوا له: "لو شئت كان لك فراش أطيب وأنعم..".

فأجابهم وهو يشير بسبابته، وبريق عينيه صوب الأمام البعيد:

"إن دارنا هناك.. لها نجم.. وإليها نرجع.. نظن إليها.. ونعمل لها"!!

وهذه النظرة إلى الدنيا ليست عند أبى الدرداء وجهة نظر فحسب، بل ومنهج حياة كذلك.

خطب يزيد بن معاوية ابنة "الدرداء" فرده، ولم يقبل خطبته. ثم خطبها لأحد فقراء المسلمين وصالحهم، فزوجها أبو الدرداء منه.

وعجب الناس لهذا التصرف، فعلمهم أبو الدرداء قائلاً:

"ما ظنكم بالدرداء إذا قام على رأسها الخدم والخصيا وبهرها زخرف القصور.

"أين دينها منها يومئذ..!!؟"

هذا حكيم قويمة النفس، زكى الفؤاد.. وهو يرفض من الدنيا ومن متاعها كل ما يشد النفس إليها، ويوله القلب بها.

وهو بهذا لا يهرب من السعادة بل يهرب إليها.

فالسعادة الحققة عنده هي أن تمتلك الدنيا، لا أن تمتلكك الدنيا.

وإنه ليقول: "ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك، وأن تبارى الناس فى عبادة الله تعالى"..

وفى خلافة عثمان رضي الله عنه وكان معاوية أميراً على الشام نزل - أبو الدرداء - على رغبة الخليفة فى أن يلى القضاء.

وهناك فى الشام وقف بالمرصاد لجميع الذين أغرتهم مباهج الدنيا، وراح يذكر بمنهج الرسول فى حياته، وزهده، وبمنهج الرعيل الأول من الشهداء والصديقين.

وكانت الشام يومئذ حاضرة تموج بالمباهج والنعيم.

وكان أهلها ضاقوا ذرعاً بهذا الذى ينغص عليهم بمواعظه متاعهم ودنياهم.

والعبادة عند "أبى الدرداء" ليست غروراً ولا تألياً. إنما هى التماس للخير وتعرض لرحمة الله، وضراعة دائمة تذكر الإنسان بضعفه. وبفضل ربه عليه:

إنه يقول: التمسوا الخير دهركم كله.. وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده.. "وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم"...

كان ذلك الحكيم مفتوح العينين دائماً على غرور العبادة، يحذر منه الناس.

ومن أقواله :

"لا تكلفوا الناس مالم يكلفوا.. ولا تحاسبوهم دون ربهم.. عليكم أنفسكم، فإن من تتبع ما يرى في الناس يطل حزنه"!!..
ويحدثنا صاحبه "أبو قلابة" فيقول:

مر "أبو الدرداء" يوماً على رجل قد أصاب ذنباً، والناس يسبونونه، فنهاهم وقال: أرأيتم لو وجدتموه في حفرة.. ألم تكونوا مخرجيه منها..؟
قالوا: بلى..

قال: فلا تسبوه إذن، واحمدوا الله الذي عافاكم.

قالوا: أفلا تبغضه..؟

قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي"!!..

وإذا كان هذا أحد وجهي العبادة عند "أبو الدرداء"، فإن وجهها الآخر هو العلم والمعرفة.

إن "أبا الدرداء" يقدس العلم تقديساً بعيداً.. يقدره كحكيم، ويقدره كعابد، فيقول:
"لا يكون أحدكم تقياً حتى يكون عالماً..

ولن يكون بالعلم جميلاً، حتى يكون به عاملاً".

أجل.. فالعلم عنده فهم، وسلوك.. معرفة، ومنهج.. فكرة، وحياء.

ولأن تقديسه هذا تقديس رجل حكيم، نراه ينادى بأن المعلم كالمتعلم كلاهما سواء في الفضل، والمكانة، والمثوبة.

ويرى أن عظمة الحياة منوطة بالعلم الخير قبل أي شيء سواه..

هاهو ذا يقول: "الناس ثلاثة.. عالم.. ومتعلم.. والثالث همج لاخير فيه".

هذا هو أبو الدرداء الذي كان إذا أطرى الناس تقاه، وسألوه الدعاء، أجابهم في تواضع وثيق قائلاً: "لا أحسن السباحة... وأخاف الغرق"!!..

رحم الله أبا الدرداء الحكيم الجليل الذي تربي على يد الرسول ﷺ وتلمذ على نهج القرآن الكريم وكان من أوائل الصحابة والمؤمنين.

عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن مسعود الهذلى حليف بنى زهرة أسلم قديماً، وقد كان الناس يدعونه: "ابن أم عبد".

كان عبد الله بن مسعود من عامة الناس فى مكة. بل كان أجيراً عند سادات قريش يرعى غنمهم ولا يجروا على مجالستهم فى ناديتهم.

وجاء رسول الله ﷺ برسائله السماوية المباركة إلى جميع بنى البشر. وبدأ يبشر بها فى مكة المكرمة، ويدعو للدين الجديد المنزل من الله سبحانه وتعالى بواسطة الملاك جبريل -عليه السلام-.

وكان الدين الذى ينادى به خير المرسلين وسيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ يدعو للمساواة بين البشر، وإزالة الظلم عن الناس، ومنع الاضطهاد الذى يتعرض له الضعفاء.

فهو دين الإنسانية الحقّة، التى تجعل الإنسان يساعد الإنسان، والغنى يسعد الفقير، والقوى يعين الضعيف. ولذلك فهو موجه للسادة، كما هو موجه للفقراء والمعدمين والصعاليك.

وسمع عبد الله بن مسعود بدعوة محمد بن عبد الله وهو غلام يافع. ولكن لم يهتم لذلك الأمر، وهو الأجير الفقير، الذى يعيش من رعى غنم عقبة بن أبى معيط. فالصراع بدا له بين السادة والعظام. ولا مكان له فى ذلك الصراع.. فهو بعيد عنه.

ولكنه بعد أن لمس بيديه صدق الدعوة وشاهد بعينه كرامة الرسول ﷺ، استجاب للدعوة، وأشهر إسلامه، ووضع نفسه فى خدمة النبى الكريم الذى رحب به برضا وسرور.

ولقد اكتسب عبد الله بن مسعود من خلال ملازمته للرسول علماً وفقهاً وتقياً. وقال عن نفسه فى ذلك:

- "أخذت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد".

ولم يكن عبد الله بن مسعود من أبرع من قرأ القرآن الكريم وحسب، بل كان

أيضاً من أفقه الناس لمعانيه، وأعلمهم بآياته.. وهو أول من جهر بالقرآن بمكة. ولقد هاجر الهجرتين جميعاً إلى الحبشة وإلى المدينة وصلى إلى القبلتين وشهد بدرًا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك بعد النبي ﷺ. روى عنه الحديث جمع كثير من الصحابة والتابعين.

وحياة عبد الله بن مسعود، في دار النبي الكريم جعلت منه رجل علم وتقى وورع وازداد بفضل تلك الصلة المباركة علماً وفقهاً فكان فقيه الأمة وعالم الدين وراوي الحديث الشريف وكان إجلاله لسيد الخلق وتوقيره له ﷺ، بلغا حداً جعلاه يرتجف من الرهبة والاحترام عند ذكر أي حديث شريف عنه، خشية تحويره.. وخاصة أن عبد الله بن مسعود لازم النبي ﷺ طيلة حياته حتى صعبت روحه إلى الرفيق الأعلى.

قيل لحذيفة حدثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ هدياً ودلاً فنأخذ عنه ونسمع منه فقال: "كان أقرب الناس هدياً ودلاً سمنا برسول الله ﷺ ابن مسعود".

ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد هو من أقربهم إلى الله زلفى، وروى عنه علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: "لو كنت مؤمراً أحداً من غير مشورة لأمرت ابن أم عبد".

ولقد عرف عمر بن الخطاب قدر عبد الله بن مسعود فعينه أميناً على بيت مال الكوفة.. وحين سيره إلى هناك هو وعمار بن ياسر كتب إلى أهلها: إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقفوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما وقد آثرتمكم بعبد الله على نفسي.

وقد أقام عبد الله في الكوفة يأخذ عنه أهلها حديث رسول الله ﷺ وهو معلمهم وقاضيهم.

وقد قال فيه علي بن أبي طالب: قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه، فقيه في الدين عالم بالسنة.

وقد تكرر ما بينه وبين عثمان في أخريات حياته فاستقدمه إلى المدينة فقدمها وأقام بها.

وحين بدأت شمعة حياة عبد الله بن مسعود تذوب وتوشك أن تتطفئ. انصرف إلى العبادة والتأمل وهو يردد. "خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وشر العمى عمى القلب، وأعظم الخطايا الكذب، وشر المكاسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، ومن يعف الله عنه، ومن يغفر الله له".

هذا هو دستور عبد الله بن مسعود في حياته.

فعبد الله بن مسعود لم يكن من المتمسكين بزيف الدنيا وزخرفها. فهي بنظره زائلة، بل كان ينشد رضا رب العالمين تبارك وتعالى.

ومات عبد الله بن مسعود عن بضع وستين سنة، ودفن في البقيع، في المدينة المنورة مقر شهداء أحد الأبرار. وصلى عليه ليلاً الصحابي الجليل الزبير ابن العوام.

رحم الله عبد الله بن مسعود ورضى عنه فهو أول قارئ للقرآن وهو من تمنى أن يباركه الرسول بدفنه كما باركه بتعليمه وملازمته.

* * *

شرح القاضى - رضى الله عنه -

هو رجل "يمنى" الموطن، "كندى"^(١) العشيرة، قضى شطراً غير يسير من حياته فى الجاهلية.

فلما أشرقت الجزيرة العربية بنور الهداية، ونفذت أشعة الإسلام إلى أرض "اليمن"، كان شريح من أوائل المؤمنين بالله ورسوله، المستجيبين لدعوة الهدى والحق.

وكان عارفو فضله ومقدرو شمائله^(٢) ومزاياه، بأسون عليه أشد الأسى، ويتمنون أنه لو أتيج^(٣) له أن يفد على المدينة مبكراً ليلقى رسول الله ﷺ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى، ولينهل من موارده^(٤) الصافية المصفاة مباشرة لا بالوساطة... ولكى يحظى بشرف الصحبة بعد أن حظى بنعمة الإيمان... وبذلك يجمع الخير من أطرافه... ولكن ما قدر كان.

ولم يكن الفاروق - رضوان الله عليه - متعجلاً حين عهد بمنصب من مناصب القضاء الكبرى لرجل من التابعين، على الرغم من أن سماء الإسلام كانت يومئذ ما تزال تتألق بالنجوم الزهر^(٥) من صحابة رسول الله ﷺ... فقد أثبتت الأيام صدق فراسة^(٦) عمر، وصواب تدبيره.

إذ ظل شريح يقضى بين المسلمين نحواً من ستين عاماً متتابعة من غير انقطاع... وقد تعاقب على إقراره فى منصبه كل من عمر، وعثمان، وعلى، ومعوية رضوان الله عليهم أجمعين.

كما أقره على ذلك من جاء بعد معاوية من خلفاء بنى "أمية"، حتى طلب الرجل إعفاه من منصبه إبان^(٧) ولاية الحجاج.

(١) كندى العشيرة: منسوب إلى كندة (بكر الكاف وسكون النون) وهى قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من المحدثين والعلماء.

(٢) شمائله أخلاقه ومزاياه. (٣) أتيج له: قدر له. (٤) ينهل من موارده: يرتوى من ينابيعه.

(٥) النجوم الزهر: النجوم المضيئة المتألثة. (٦) الفراسة: نقة التوقع.

(٧) إبان: حين.

وكان قد بلغ السابعة بعد المائة من حياته المديدة الرشيدة الحافلة بالمفاخر والمآثر^(١).

ولقد ازدان تاريخ القضاء فى الإسلام ببدايع من مواقف شريح، وزها بروائع من انصياع^(٢) خاصة المسلمين وعامتهم لشرع الله الذى يمثله شريح، ونزولهم عند أحكامه... وامتألت بطون الكتب بطرائف هذا الرجل الفذ وأخباره، وأقواله وأفعاله.

من ذلك أن عليا بن أبى طالب - رضى الله عنه - افتقد درعاً له كانت أثيرة^(٣) عنده غالية عليه... ثم ما لبث أن وجدها فى يد رجل من أهل الذمة^(٤) يبيعه فى سوق "الكوفة"... فلما رآها عرفها وقال:

هذه درعى سقطت عن جمل لى فى ليلة كذا... وفى مكان كذا... فقال الذمى: بل هى درعى وفى يدى يا أمير المؤمنين.

فقال على: إنما هى درعى لم أبعها من أحد، ولم أهبها لأحد حتى تصير إليك. فقال الذمى: بينى وبينك قاضى المسلمين..

فقال على: أنصفت، فهلم إليه^(٥)... ثم إنهما ذهبا إلى شريح القاضى، فلما صارا عنده فى مجلس القضاء، قال شريح لعلى - رضى الله عنه -: ما تقول يا أمير المؤمنين؟

فقال: لقد وجدت درعى هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت منى فى ليلة كذا وفى مكان كذا، وهى لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة. فقال شريح للذمى: وما تقول أنت أيها الرجل؟

فقال: الدرع درعى وهى فى يدى... ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب... فالتفت شريح إلى على وقال:

(١) المآثر: الأفعال الحميدة ذوات الآثار الجليلة.
(٢) الانصياع: الاتباع.
(٣) أثيرة عنده: عزيزة عليه.
(٤) أهل الذمة: من يعيشون فى ديار الإسلام من النصارى واليهود.
(٥) فهلم إليه: فبادر إليه.

لاريب^(١) عندى فى أنك صادق فيما تقوله يا أمير المؤمنين، وأن الدرع درعك، ولكن لا بد لك من شاهدين يشهدان على صحة ما ادعيت.

فقال على: نعم... مولاي^(٢) "قنبر"، وولدى الحسن يشهدان لى...!

فقال شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين.

فقال على: يا سبحان الله!!.. رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته!!...! أما سمعت أن رسول الله ﷺ قال: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة).

فقال شريح: بلى يا أمير المؤمنين... غير أنى لا أجزى شهادة الولد لوالده.

عند ذلك التفت على^١ إلى الذمى وقال: خذها، فليس عندى شاهد غيرهما.

فقال الذمى: ولكنى أشهد بأن الدرع لك يا أمير المؤمنين... ثم أردف^(٣) قائلاً:

ياالله... أمير المؤمنين يقاضينى أمام قاضيه!!... وقاضيه يقضى لى عليه!!...! أشهد أن الدين الذى يأمر بهذا لحق... وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله... اعلم أيها القاضى أن الدرع درع أمير المؤمنين، وأنى اتبعت الجيش وهو منطلق إلى "صفين"^(٤)، فسقطت الدرع عن جملة الأورق^(٥) فأخذتها.

فقال له على - رضى الله عنه-: أما وإتك قد أسلمت فإنى وهبتها لك... ووهبت لك معها هذا الفرس أيضاً.

ولم يمض على هذا الحادث زمن طويل، حتى شوهد الرجل يقاتل الخوارج^(٦) تحت راية على^١ فى يوم "النهروان"^(٧)، ويمعن فى القتال حتى كتبت له الشهادة.

ومن روائع شريح أيضاً أن ابنه قال له يوماً:

يا أبت إن بينى وبين قوم خصومة، فانظر فيها... فإن كان الحق لى قاضيتهم^(٨)، وإن كان لهم صالحتهم... ثم قص عليه قصته.

(١) لاريب: لا شك. (٢) مولاي: عبيدى.

(٤) صفين: موضع بقرب الرقة من سورية وقعت فيه وقعة كبيرة بين على ومعاوية - رضى الله عنهما.

(٥) الأورق: الذى لونه لون الرماد.

(٦) الخوارج: كانوا من أتباع على بن أبى طالب، وخرجوا عليه لخالف فى الأراء، وتطلق على من خرج على الخلفاء، ونحوهم.

(٧) يوم النهروان: واقعة جرت بين الإمام على - رضى الله عنه- وبين الخوارج.

(٨) قاضيتهم: رفعت أمرهم إلى القضاء.

فقال له: انطلق فقاضهم... فمضى إلى خصومه ودعاهم إلى المقاضاة، فاستجابوا له.

ولما مثلوا^(١) بين يدي شريح، قضى لهم على ولده.. فلما رجع شريح وابنه إلى البيت قال الولد لأبيه: فضحتنى يا أبت... والله لو لم أستشرك من قبل لما لمتك.

فقال شريح: يا بنى، والله لأنت أحب إليّ من ملء الأرض من أمثالهم، ولكن الله عز وجل أعز علىّ منك... لقد خشيت أن أخبرك بأن الحق لهم، فتصالحهم صلحاً يفوت عليهم بعض حقهم، فقلت لك ما قلت.

وقد كفل ولد لشريح رجلاً فقبل كفالاته، فما كان من الرجل إلا أن فر هارباً من يد القضاء.

فسجن شريح ولده بالرجل الفار.. وكان ينقل له طعامه بيده كل يوم إلى السجن. وكانت الشكوك تساور^(٢) شريحاً - أحياناً - فى بعض الشهود... غير أنه لا يجد سبيلاً لدفع شهادتهم، لما توافر لهم من شروط العدالة، فكان يقول لهم قبل أن يدلوا بشهادتهم:

اسمعوا منى هداكم الله.

إنما يقضى على هذا الرجل أنتم... وإنى لأتقى النار بكم، وأنتم باتقانها أولى... وإن فى وسعكم الآن أن تدعوا الشهادة وتمضوا.

فإذا أصروا على الشهادة، التفت إلى الذى يشهدون له وقال:

اعلم يا هذا أننى أقضى لك بشهادتهم... وإنى لأرى أنك ظالم... ولكنى لست أقضى بالظن، وإنما أقضى بشهادة الشهود... وإن قضائى ما يحل لك شيئاً حرمه الله عليك.

وكان الشعار الذى يردده شريح فى مجالس قضائه قوله:

عداً سيعلم الظالم من الخاسر؟.

(١) مثلوا: يقال مثل فلان بين يدي فلان أى قام منتصباً بين يديه.

(٢) تساور شريحاً: تلم بشريح وتسولى على فكره.

إن الظالم ينتظر العقاب... وإن المظلوم ينتظر النصفة^(١)... وإنى أحلف بالله، أنه ما من أحد ترك شيئاً لله عز وجل ثم أحس بفقده... ولم يكن شريح ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه فحسب، وإنما كان ناصحاً لعامة المسلمين وخاصتهم أيضاً.

روى أحدهم قال: سمعني شريح وأنا أشتكى بعض ما غمى لصديق، فأخذني من يدي وانتحي^(٢) بي جانباً، وقال:

يا ابن أخي... إياك والشكوى لغير الله عز وجل.. فإن من تشكو إليه لا يخلو أن يكون صديقاً أو عدواً... فأما الصديق فتحزنه... وأما العدو فيشمت بك... ثم قال: انظر إلى عيني هذه - وأشار إلى إحدى عينيّه - فوالله ما أبصرت بها شخصاً ولا طريقاً منذ خمس عشرة سنة.

ولكني ما أخبرت أحداً بذلك إلا أنت في هذه الساعة... أما سمعت قول العبد الصالح^(٣): ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِيِّ وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

فاجعل الله عز وجل مشاكك ومحزنك عند كل نائبة^(٤) تتوبك... فإنه أكرم مسئول وأقرب مدعو.

وقد رأى ذات يوم رجلاً يسأل آخر شيئاً فقال له: يا ابن أخي من سأل إنساناً حاجة فقد عرض نفسه على الرق.

فإن قضاها له المسئول فقد استعبده بها... وإن رده عنها رجع كلاهما ذليلاً... هذا بذل البخل... وذلك بذل الرد... فإذا سألت فاسأل الله.

وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد وقع "بالكوفة" طاعون فخرج صديق لشريح منها إلى "النجف"^(٥) بيتغى المهرب من الوباء، فكتب إليه شريح:

أما بعد... فإن الموضع الذي تركته لا يقرب حمامك^(٦)، ولا يسلب منك أيامك... وإن الموضع الذي صرت إليه في قبضة من لا يعجزه طلب، ولا يفوته

(٢) انتحي بي: مال بي.

(٤) نائبة: مصيبة.

(٦) حمامك: موتك وميتك.

(١) النصفة: الإتيان والعدل.

(٣) العبد الصالح: هو يعقوب أبو يوسف -عليهما السلام-.

(٥) النجف: من أعمال العراق.

هرب... وأنا وإياك لعلى بساط ملك واحد... وإن "النجف" من ذى قدرة لقريب.
وكان شريح إلى ذلك كله شاعراً قريب المأخذ حلو الأداء طريف
الموضوعات.

رضى الله عن الفاروق، فقد زان مفروق^(١) القضاء فى الإسلام بلؤلؤة كريمة
الأعراق... صافية الجوهر... رائعة المجتلى... وحباً^(٢) المسلمين مصباحاً
منيراً، مازالوا حتى اليوم يستضيئون بسنا فقهه لشرع الله... ويهتدون بنور فهمه
لسنة رسول الله... ويباهون به الأمم يوم القيامة.

ورحم الله شريحاً القاضى... فقد أقام العدل بين الناس ستين عاماً.
فما حاف^(٣) على أحد، ولا حاد^(٤) عن حق. ولا ميز بين ملك وسوقة^(٥).

* * *

(١) المفروق: مفرد وجمعه مفارق... ومفارق القضاء: وجوهه الواضحة.

(٢) حباً المسلمين: منح المسلمين.

(٣) حاف: جار وظلم.

(٥) السوقة: عامة الناس.

(٤) حاد: مال.

إياس بن معاوية المزني - رضى الله عنه -

ولد إياس بن معاوية بن قره المزني سنة ست وأربعين للهجرة في منطقة "اليمامة" في "تجد".

وانتقل مع أسرته إلى "البصرة" وفيها نشأ وتعلم...

وتردد على "دمشق" في يفاعته^(١)، وأخذ عن أدركه من بقايا الصحابة الكرام، وجلة^(٢) التابعين.

ولقد ظهرت على الغلام المزني علائم النجابة وأمارات^(٣) الذكاء منذ نعومة أظفاره^(٤)...

وجعل الناس يتناقلون أخباره ونوادره وهو مازال صبياً صغيراً...

روى عنه أنه كان يتعلم الحساب في كتاب^(٥) لرجل يهودي من أهل الذمة^(٦)... فاجتمع عند المعلم أصحابه من اليهود، وجعلوا يتكلمون في أمور الدين وهو ينصت إليهم من حيث لا يدرون...

فقال المعلم لأصحابه:

ألا تعجبون للمسلمين، فهم يزعمون أنهم يأكلون في الجنة ولا يتغوطون^(٧)!!

فالتفت إليه إياس وقال:

أتأذن لي يا معلم بالكلام فيما تخوضون^(٨) فيه؟

فقال المعلم: نعم.

فقال الفتى: أكل ما يؤكل في الدنيا يخرج غائطاً؟

فقال المعلم: لا.

فقال الفتى: فأين يذهب الذي لا يخرج؟

(١) اليفاع: أوائل الصبا.

(٢) أمارات الذكاء: علامات الذكاء.

(٣) الكتاب: مكان التعليم، وجمعه كتابيب.

(٤) أهل الذمة: من دخل في عهد المسلمين وحمايتهم من اليهود والنصارى وغيرهم.

(٥) لا يتغوطون: لا يقضون الحاجة ولا يتبرزون. (٨) تخوضون فيه: تتناقشون فيه وتتبادلون الآراء.

فقال المعلم: يذهب في غذاء الجسم.

فقال الفتى: فما وجه الاستنكار منكم إذا كان يذهب بعض ما نأكله في الدنيا
غذاء، أن يذهب كله في الجنة في الغذاء؟

فألوى المعلم يده وقال له: قاتلك الله من فتى.

ويتقدم الغلام في السن سنة فسنة...

وتتقدم معه أخبار ذكائه أينما حل.

فقد روى أنه دخل "دمشق" وهو ما يزال غلاماً، فاختلف مع شيخ من أهل
"دمشق" في حق من الحقوق، ولما ينس من إقناعه بالحجة، دعاه إلى القضاء...

فلما صارا بين يدي القاضي، احتد إياس ورفع صوته على خصمه...

فقال له القاضي: اخفض صوتك يا غلام...

فإن خصمك شيخ كبير السن والقدر.

فقال إياس: ولكن الحق أكبر منه.

فغضب القاضي وقال: اسكت...

فقال الفتى: ومن ينطق بحجتي إذا سكت؟!!

فازداد القاضي غضباً وقال:

ما أراك تقول منذ دخلت مجلس القضاء إلا باطلاً.

فقال إياس: لا إله إلا الله وحده لا شريك له...

أحق هذا أم باطل؟

فهدأ القاضي وقال:

حق... ورب الكعبة حق...

وأكب^(١) الفتى المزني على العلم، ونهل^(٢) منه ما شاء الله أن يثهل حتى بلغ

(٢) نهل منه: شرب منه.

(١) أكب على العلم: عكف عليه وانقطع له.

فيه مبلغاً جعل الشيوخ يخضعون له، ويأتمون به، ويتألمذون على يديه، على الرغم من صغر سنه.

ففي ذات سنة، زار عبد الملك بن مروان "البصرة" قبل أن يلي الخلافة، فرأى إياساً وكان يومئذ فتى يافعاً^(١) لم يطر شاربه^(٢) بعد...

ورأى خلفه أربعة من القراء من نوى اللحي في طيالستهم^(٣) الخضـر، وهو يتقدمهم...

فقال عبد الملك: أف لأصحاب هذه اللحي...

أما فيهم شيخ يتقدمهم، فقدموا هذا الغلام!؟

ثم التفت إلى إياس وقال: كم سنك يا فتى؟

فقال إياس: سني - أطال الله بقاء الأمير - كسن أسامة بن زيد حين ولاه رسول الله ﷺ جيشاً فيه أبو بكر وعمر^(٤).

فقال له عبد الملك: تقدم يافتى... تقدم... بارك الله فيك.

وفي ذات سنة خرج الناس يلتمسون^(٥) هلال رمضان، وعلى رأسهم الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري...

وكان يومئذ شيخاً كبيراً قد قارب المائة...

فنظر الناس إلى السماء فلم يروا شيئاً.

لكن أنس بن مالك جعل يحدق في السماء ويقول:

لقد رأيت الهلال... هاهو ذا...

وجعل يشير إليه بيده... فلم يره أحد.

عند ذلك نظر إياس إلى أنس - رضى الله عنه - فإذا شعرة طويلة في حاجبه قد انتنت حتى غدت قبالة^(٦) عينه.

(١) فتى يافعاً: فتى في بواكير الصبا.

(٢) لم يطر شاربه: لم يظهر شعر شاربه (كناية عن حداثة السن).

(٣) طيالستان: كساء أخضر يلبسه المشايخ، وجمعه: طيالسة.

(٤) كانت سن أسامة يومئذ دون العشرين.

(٥) يلتمسون الهلال: يتحرون رؤيته.

(٦) قبالة عينه: أمام عينه.

فاستأذنه في أدب، ومد يده إلى الشعرة فمسحها وسواها، ثم قال له: أتري الهلال الآن أيضاً يا صاحب رسول الله؟
فجعل أنس ينظر ويقول:
كلا ما أراه، كلا ما أراه.

وشاعت أخبار نكاء إياس وذاعت، وصار الناس يأتونه من كل صوب^(١) ويلقون بين يديه ما يعترضهم من مشكلات في العلم والدين...
بعضهم يريد المعرفة...

وبعضهم الآخر يبتغي التعجيز والممارة^(٢) بالباطل...

من ذلك ما روى أن دهقاناً^(٣) أتى مجلسه فقال:

يا أبا وائلة... ما تقول في المسكر؟

قال: حرام.

قال: وما وجه حرمة، وهو لا يزيد عن كونه ثمراً وماء غلياً على النار، وكل ذلك مباح لا شيء فيه.

فقال: أفرغت من قولك يا دهقان أم بقي لديك ما تقوله؟

فقال: بل فرغت.

فقال: لو أخذت كفا من ماء وضربتك به أكان يوجعك؟

قال: لا.

فقال: ولو أخذت كفا من تراب فضربتك به أكان يوجعك؟

قال: لا.

فقال: فلو أخذت التراب ثم طرحته عليه اللبن، وصببت فوقهما الماء ثم مزجتها مزجاً، ثم جعلت الكتلة في الشمس، حتى يبست، ثم ضربتك بها أكانت توجعك؟

(١) الصوب: الجهة.

(٢) الممارة بالباطل: المجادلة بالباطل.

(٣) الدهقان: كلمة فارسية معناها رئيس الإقليم وغيره.

قال: نعم... وقد تقتلني.

فقال: هكذا شأن الخمر، فهو حين جمعت أجزاءه وخمر، حرم.

ولما ولي إياس القضاء ظهرت له فيه مواقف تدل على فرط ذكائه، وسعة حيلته، وقدرته الفذة في الكشف عن الحقائق.

من ذلك أن رجلين تقاضياً عنده، فادعى أحدهما أنه أودع لدى صاحبه مالاً، فلما طلبه منه جده^(١).

فسأل إياس الرجل المدعى عليه عن أمر الوديعة، فأنكرها وقال:

إن كانت لصاحبي بينة^(٢) فليأت بها...

وإلا فليس له عليّ إلا اليمين.

فلما خاف إياس أن يأكل الرجل المال بيمينه، التفت إلى المودع وقال له: في أي مكان أودعته المال؟

قال: في مكان كذا...

فقال: وماذا يوجد في ذلك المكان؟

فقال: شجرة كبيرة جلسنا تحتها، وتناولنا الطعام معاً في ظلها...

ولما هممنا بالانصراف دفعت إليه المال.

فقال له إياس:

انطلق إلى المكان الذي فيه الشجرة، فلعلك إذا أتيتها ذكرتك أين وضعت مالك، ونبهتك إلى ما فعلته به...

ثم عد إليّ لتخبرني بما رأيت.

فانطلق الرجل إلى المكان، وقال إياس للمدعى عليه:

اجلس إلى أن يجيء صاحبك... فجلس.

ثم التفت إياس إلى من عنده من المتقاضين، وطفق يقضى بينهم، وهو يرقب الرجل بطرف خفي...

(٢) بينة: دليل وحجة.

(١) جده: أكره.

حتى إذا رآه قد سكن واطمأن، التفت إليه وبادره^(١) قائلاً:
أتقدر أن صاحبك قد بلغ الموضع الذي أودعك فيه المال؟
فقال الرجل من غير روية^(٢): كلا...
إنه بعيد من هنا.

فقال له إياس:

يا عدو الله تجحد المال، وتعرف المكان الذي أخذته فيه؟! ... والله إنك لخائن.
فبهت^(٣) الرجل، وأقر بخيائته... فحبسه حتى جاء صاحبه، وأمره ببرد
وديعته إليه.

ومن ذلك أيضاً ما روى من أن رجلين اختصما إليه في قطيفتين^(٤) مما يوضع
على الرأس ويسدل على الكتفين...

إحداهما خضراء جديدة ثمينة، والأخرى حمراء بالية.

فقال المدعى: نزلت إلى الحوض لأغتسل، ووضعت قطيفتي الخضراء مع
ثيابي على حافة الحوض، وجاء خصمي فوضع قطيفته الحمراء إلى جانب
قطيفتي، ونزل إلى الحوض، وخرج قبلي... فلبس ثيابه وأخذ قطيفتي، فألقاها
على رأسه وكتفيه ومضى بها.

فخرجت على إثره وتبعته، وطالبتّه بقطيفتي، فزعم أنها له...

فقال إياس للرجل المدعى عليه:

وما تقول أنت؟!.

فقال: هي قطيفتي وفي يدي.

فقال إياس للرجل المدعى: ألك بينة؟.

فقال: كلا.

(٢) من غير روية: من غير تفكر.

(١) بادره: عاجله وفاجاه.

(٤) القطيفة: قطعة من المخمل يليقها المرء على نفسه.

(٣) فبهت: دهش وسكت متحيراً.

فقال لحاجبه^(١): أحضر لى مشطاً، فأحضر له...

فمشط شعر رأس الرجلين، فخرج من رأس أحدهما زغب^(٢) أحمر من نثار^(٣) صوف القطيفة، وخرج من رأس الآخر زغب أخضر... فمضى بالقطيفة الحمراء لصاحب الزغب الأحمر، وبالقطيفة الخضراء لصاحب الزغب الأخضر.

ومن أخبار فطنته وذكائه أيضاً أنه كان في "الكوفة" رجل يظهر للناس الصلاح، ويبدى لهم الورع والتقوى... حتى كثر الثناء عليه، واتخذ بعض الناس أميناً لهم يأتمنونه على مالهم إذا سافروا...

ويجعلونه وصياً على أولادهم إذا أحسوا بدنو الأجل.

فأتاه رجل واستودعه مالاً، ولما احتاج الرجل إلى ماله طلبه منه فأنكره.

فمضى إلى إياس وشكا له الرجل، فقال للمشتكى:

أعلم صاحبك أنك تريد أن تأتيني؟

قال: كلا.

فقال له: انصرف وعد إليّ غداً...

ثم أرسل إياس إلى الرجل المؤتمن، وقال له:

لقد اجتمع لدى مال كثير لأيتام لا كافل لهم، وقد رأيت أن أودعه لديك، وأن أجعلك وصياً عليهم، فهل منزلك حصين ووقتك متسع؟.

فقال: نعم أيها القاضي.

فقال: تعال إليّ بعد غد، وأعد موضعاً للمال...

وأحضر معك حمالين يحملونه...

وفي اليوم التالي جاء الرجل المشتكى، فقال له إياس:

انطلق إلى صاحبك واطلب منه المال، فإن أنكره فقل له:

(٢) الزغب: صغار الريش والشعر.

(١) الحاجب: البواب الذي يقف بأبواب الخلفاء والوزراء ونحوهم.

(٣) النثار: ما يتناثر من الشيء إذا نثرته.

أشكوك إلى القاضي.

فأتاه الرجل فطلب منه ماله، فامتنع عن إعطائه له وجده.

فقال له: إذن أشكوك إلى القاضي.

فلما سمع ذلك منه دفع إليه المال، وطيب خاطره.

فرجع الرجل إلى إياس وقال:

لقد أعطاني صاحبي حتى وجزاك الله خيراً.

ثم جاء الرجل المؤتمن إلى إياس في مواعده ومعه الحمالون، فزجره وأشهره^(١) وقال له:

بئس الرجل أنت يا عدو الله، لقد جعلت الدين مصيدةً للعالم...

لكن إياساً على شدة نكائه، وقوة عارضته^(٢) وسرعة بديهته... ربما صادف من يقارعه الحجة بالحجة، ويقطع عليه سبل الكلام ويفحمه^(٣)...

حدث عن نفسه قال:

ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد، وذلك أني كنت في مجلس القضاء "بالبصرة" فدخل عليّ رجل، فشهد عندي أن البستان الفلاني هو ملك فلان، وحدده لي...

فأردت أن أمتحن شهادته.

فقلت له: وكم عدد شجر البستان؟

فأطرق قليلاً، ثم رفع رأسه وقال:

منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس؟

فقلت: منذ كذا سنة.

فقال: كم عدد خشب سقف هذا المجلس؟

فلم أعرف، وقلت: الحق معك...

(٣) يفحمه: يسكته بالحجة.

(٢) قوة عارضته: قوة تفكيره.

(١) أشهره: فضحه.

ثم أجزت شهادته...

ولما بلغ إياس بن معاوية السادسة والسبعين من عمره، رأى نفسه وأباه في المنام راكبين على فرسين، فجريا معاً... فلم يسبق أباه ولم يسبقه أبوه، وكان والده قد مات عن ست وسبعين سنة.

وفي ذات ليلة أوى إياس إلى فراشه وقال لأهله:

أتدرون أي ليلة هذه؟

قالوا: كلا.

قال: في هذه الليلة استكمل أبي عمره.

فلما أصبحوا، وجدوه ميتاً.

رحم الله إياساً القاضي، فقد كان نادرة من نوادر الزمان، وأعجوبة من أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، والبحث عن الحق والوصول إليه .

* * *

وهكذا نرى أن ساحة العدالة على مر التاريخ بمجموعة من القضاة الأفاضل الذين كان الحق رائدهم والعدالة هدفهم الأسمى، ولنذكر في هذا الصدد لمحات قصيرة لنماذج قليلة من هؤلاء الأعلام ليكونوا مشاعل نور يهتدى بها الناس، ويستضيء بها الباحثون.